

قراءة في كتاب

Jamaa Baida-La presse marocaine d'expression française des origines A 1956.(Publications de la Faculté des Lettres. Rabat.1996).

ذ . إبراهيم بوطالب *

هل يجوز أن تعتمد الصحافة كمصدر من مصادر التوثيق التاريخي ؟وكيف ينطبق ذلك على الصحف التي صدرت بالفرنسية في المغرب منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى أن استرجعت البلاد استقلالها ؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن اعتبار تلك الصحافة أداة من أدوات كتابة تاريخ الحماية ؟ تلك هي الأسئلة المحورية في أطروحة الأستاذ جامع بيضا التي حصل بها على درجة دكتورة الدولة في التاريخ المعاصر من جامعة ميشيل دي مونطيني في مدينة بورضو الفرنسية في شهر مارس من سنة 1995، وهي أسئلة تلتحم فيها الجوانب المنهجية بالجوانب المعرفية ويحمل القارئ من خلالها على التساؤل عن قيمة الجرائد وما إليها من الدوريات في الكتابة التاريخية، علما بأن الصحف تكون على العموم في سباق مستمر مع الطوارئ فلا يتسع الوقت أمامها لغربلتها ولفرز الراجح منها العامل في التاريخ مما لا تأثير له فيه. وإن أعطي من العناوين ما يحتل الحيز الأكبر من الصفحة الأولى فكم من واقعة تبدو تاريخية للصحافي حتى إذا مر عليها حين من الدهر بدت للمؤرخ سحابة صيف تثير الانتباه ولا طائل من ورائها. وهذا في الصحافة الرصينة الملتزمة بشيء من التحليل الموضوعي ، أما إذا كانت الصحافة لسان حزب وأداة تحيز فأقوالها لا تتجاوز في الغالب مستوى التعبير عن أغراضها الذاتية فهي شاهدة على نفسها ولا يمكن أن تشهد على غيرها إلا بالاستقراء الحذر.

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ـــ الرباط .

على أن ما يدلي به الأستاذ بيضا في أطروحته ومن خلال أربعمائة صفحة من السطور الكثيفة المتلاحقة من التفاصيل الدقيقة الموثقة لا يترك مجالا للجزم بأن الصحافة مصدر من مصادر التاريخ المعاصر لا ينبغي الاستخفاف به بل لا يمكن الاستغناء عنه. والمثال الذي اعتمده الباحث للبرهان على ذلك يمكن اعتباره نموذجا. فهذا المغرب الأقصى الذي كان لا يصدر فيه أدنى صحيفة بأية لغة كانت إلى حدود مطلع الثمانينات من القرن الماضي نجده بعد ذلك بثمانين سنة وفي سنة 1951 بالضبط يصدر فيه 150 صحيفة في المنطقة السلطانية وحدها مع صدور معظمها في الدار البيضاء(82) وفي الرباط(57) وصدور الأغلبية الساحقة منها بالفرنسية(94%) مقابل 5 % بالعربية والباقي بالإنجليزية. وأي دليل على ما طرأ على البلاد من التحولات والانقلابات أقرب لمسا من هذه القفزة العددية التي تخفي لزوما من تحتها قفزة في المعنويات إذ انتشار الصحافة المكتوبة في مجتمعنا في تلك الحقبة ولو بلغة الغير كان أجلى علامة على التغيير بل وسببا من أسبابه ولا يقل في ذلك مفعولها عن مفعول تعميم التنقل بالسيارة أو القطار أوتعميم الاستنارة بالكهرباء ولو في المدن.

وقد وقف الأستاذ بيضا على أمارات تلك التغيرات وعلى مختلف مراحلها من خلال ما صدر من الصحف الفرنسية في المغرب فيما بين 1870 و1956 وهي المرحلة التي قال عنها في الخلاصة العامة من كتابه (ص396) بأن فترات السلم فيها كانت هي الاستثناء أما القاعدة فكانت للحرب والاقتتال إما من خلال الحربين العالميتين الكبريين وإما من خلال حروب التمهيد أو "لاباسفكاسيون" التي امتدت اثنين وعشرين سنة وكانت حرب الريف ذروة فيها وكانت ثورة الملك والشعب آخر معاركها. وقد ميز الباحث بين خمس محطات في تاريخ تطور تلك الصحافة.

المحطة الأولى تقع في الفترة السابقة لعقد الحماية من ثمانينات القرن التاسع عشر إلى سنة 1912 حيث كانت الصحافة الصادرة بالفرنسية في آن واحد نذيرا بالتجديد المفروض بالعنف ودليلا على عجز المغرب عن مسايرته بوسائله الذاتية وعلى قرب وقوعه في شباك الإمبريالية الفرنسية إذ كانت جل المبادرات الصحفية تتم بالفرنسية على يد بعض اليهود المأمورين للأوساط الفرنسية مثل أبراهام ليفي كوهن صاحب Le Réveil du Maroc الذي خلفه عليه حاييم بن شمول، أو على يد الأجهزة الديبلوماسية نفسها مثلما كان الأمر بالنسبة لجريدة La dépêche de Tanger أو على يد بعض من جاء البلاد في ركاب جيوش الاحتلال يسعى في الرزق من خلال الصحافة مثل La Vigie Marocaine التي أصدرها في الدار البيضاء منذ 1908 صحافي متقلب الأطوار اسمه Christian Houel.

وتمتد المحطة الثانية على طول مقيمية ليوطي من 1912 إلى 1925 ، وفيها وضعت أبرز معالم الصحافة عامة والصحافة المكتوبة بالفرنسية خاصة على ما

ستبقى عليه لمدة الحماية سواء من ذلك الظهير المنظم لقوانين صدورها (27 أبريل 1914) أو حالة الطوارئ التي أقرت في المغرب ليلة اندلاع الحرب العالمية الأولى والتي جعلت المخالفات الصحفية من اختصاص المحاكم العسكرية ثم تناسى ليوطي وكل من خلفه في الإقامة العامة أن يلغوها إلى أن استقلت البلاد سنة 1956. ولذلك تميزت حكومة ليوطي في الميدان الصحفي بعدة فترات من الجدل العنيف الناتج عن ذلك التشريع المتشنج وعن رفض بعض الصحفيين الفرنسيين الامتثال لمقتضياته مثل هوبيل السابق الذكر وآخرين من أضرابه الذين تحاملوا على الإقامة العامة بأشد لهجة مما اضطر ليوطي إلى طردهم من المغرب فبقي سيد الميدان حريصا على أن لا تنتقل إلى المغرب تلك الحرية التي كانت تنعم بها الصحف في فرنسا والتي كان يعتبرها شكلا من الفوضى لا حاجة للمغاربة به سيما بعد انتشار حرب الريف في المنطقة السلطانية.

وتمتد الفترة الثالثة من 1926 إلى 1939 وهي الفترة التي أرسيت فيها الشبكتان الصحفيتان الفرنسيتان الرئيسيتان حول Pierre Mas وجرائده الأربعة La Vigie Marocaine وle Petit marocain في الدار البيضاء و L'Echo du Maroc في الرباط وle Courrier du Maroc في فاس، علما بأنه لم يؤسس أية واحدة منها وإنما استفاد من ثروة والده Antoine Mas التي تجمعت لديه من مضارباته الرابحة في المغرب منذ 1907 ليقتني كل ذلك ممن كان قد سبق إلى إنشائه. هذا من جهة ومن جهة أخرى شبكة Francis Busset وjean Renaud بجريدتين أولاهما صباحية وهي أشهرهما عنوانها La Presse marocaine والثانية مسائية كما يدل عليها عنوانها بالفرنسية Le Soir marocain وإن لم تعمر طويلا لضعف ما كانت تتوكأه من الوسائل المادية بالنظر إلى شبكة ماس التي سيطرت منذ العشرينات سيطرة تامة على ما أصبح يسمى بالصحافة اليومية الكبرى لقراءتها من قبل السواد الأعظم . على أن أبرز ما يميز هذه المرحلة الثالثة ظهور الصحافة الحزبية الناطقة بالفرنسية سواء في أوساط الجالية الأوربية التي دخلت على المغرب بكل ما كانت تحمل في ثناياها من التناقضات أو في صفوف الشرائح الوطنية المغربية الناشئة. وقد شرح الباحث هاهنا ما كان للمرحوم محمد بن الحسن الوزاني من الأدوار الريادية والنضالية في هذا المضمار. لكن لما كانت تلك الصحافة صحافة متحيزة فإنها كانت لا تركب إلا أعلى ما في أمواج الصدام السياسي من القمم فكانت مثيرة للعنف معرضة له بحيث ما أن سارت معالم الحروب العالمية تلوح في الأفق حتى كان جل الجرائد المتحزبة قد صدر القرار المقيمي بإيقافها وفي بعض الحالات ألقي القبض على أصحابها مثل محمد بن الحسن الوزاني ومحمد اليازدي في صفوف المغاربة وPaul Chaignaud صاحب Le Maroc Socialiste لسان حال فرع الحزب الاشتراكي الفرنسي في المغرب.

وكان حتما أن تفتح الحرب العالمية الثانية مرحلة جديدة في مسار تلك الصحافة وهي المرحلة الرابعة، وذلك من جراء ما ترتب عليها من الهزات ومن انقسام الفرنسيين إلى حزبين متناحرين ورجح أول الأمر حزب بيطان فيما بين 1940و 1942 ففرض فلسفته وشعاراته وقوانينه المناوئة لكل تحرر فكري. وتحمست لذلك صحف ماس بمنتهى الحماس وصبت جام غضبها على دي كول وعلى الإنجليز، بينما حاولت شبكة بوسي الوقوف موقفا مطبوعا بشيء من الرصانة. ثم لما كان نزول الحلفاء في نونبر 1942 آل الأمر بالتدريج إلى أنصار دي كول فنشأت صحافة جديدة متياسرة على العموم ومطالبة قبل كل شيء بالانتقام ممن كان قد قبل التعامل مع الألمان وألقي القبض بالفعل على بيير ماس ووضع تحت الإقامة الإجبارية سنة 1945 وصدر الأمر بتفكيك شبكته فتفككت في الظاهر بأن أقيم حول كل عنوان من عناونها شركة متميزة خاصة لا علاقة لها بماس مبدئيا وإن كان الذين ترأسوها كلهم من أصدقائه وممن كان يعمل معه أمثال الدكتور إيرو (Eyraud) الذي ترأس من يومئذ La Vigie marocaine إلى أن أرداه الفدائيون قتيلا في صيف 1954 جزاء وفاقا على بعد شأوه في المكر والخبث. ومن أغرب ما وقع لدى تفكيك شبكة ماس ولو في الظاهر أن استحوذ الاتحاد العام الكونفدرالي للنقابات المغربية(U.G.S.C.M.) الناشئ قريبا على جريدة Le Petit Marocain وجعلها لسان حاله إلى سنة 1948 وكان ذلك من المفارقات العجيبة التي حولت صحيفة كانت موسومة بتطرفها اليميني لدرجة أن الظرفاء كانوا قد غيروا عنوانها فيما بينهم فجعلوه Le Petit Nazi حتى إذا وضعت الحرب أوزارها أصبحت نفس الجريدة تعبر عن نضال الطبقة العمالية والأفكار التقدمية. أما شبكة بوسي فلم تستفد لا من الهيمنة الفاشستية ولا من سيطرة دي كول. فلا المقيم نوجيس (Noguès) كان ممن يمكن أن يشكر له مجهوداته التزاما بالموضوعية ولا جابرييل بووه (Gabriel Puaux) الذي عينه دي كول في الإقامة بالرباط كان ممن يصغي لأقوال الحقائق ولو بالتي هي أحسن.

وكانت المرحلة الخامسة والأخيرة من 1946 إلى 1956. وكان من مميزاتها الكبرى تصلب الصحافة الكبرى وجرائد ماس على وجه التخصيص في مواقف الطغيان والجبروت في الوقت الذي اضطرت فيه الإقامة العامة للترخيص للأحزاب الوطنية المغربية بإصدار صحف لها من جديد سواء في طنجة التي أصدر المرحوم المكي الناصري فيها La Voix du Maroc منذ ربيع 1946 إلى غداة الزيارة السلطانية لطنجة في أبريل من السنة الموالية إذ تم توقيفها لما أبدته من الحماس الوطني بالمناسبة، أو في المنطقة السلطانية التي أصدر فيها حزب الاستقلال سنة1948 (L'Opinion du peuple) وحيث لم تعمر لأسباب ذاتية فإنه أصدر أسبوعية Al-Istiqlal من خريف 1951 إلى أن تم توقيفها غداة أحداث الكاريير سانترال في دجنبر 1952. ولكن الحركة الوطنية وجدت مع ذلك من ينافح عنها ويسمع بعض

تظلماتها ولو في خفوت على لسان مجموعة فالطير Walter الــذي ورث صحافــة بوسي في ظروف يشرح الأستاذ بيضا جوانبها شرحا ضافيا. وبذلك أصبحــت La Presse marocaine السابقة تحمل عنوان Presse – Maroc جريدة متمسكة بشيء مــن التعقل والموضوعية سيما عندما فوتت إلى المقاول صاحب زيت لوســيور آنــذاك وهو Jacques Lemaigre-Dubreuil الذي أدرك أن استقلال المغرب آت لا مفر منـــه فطرح كل تعنت وصار يصدع بالواقع. فلم يتردد المتطرفون من أنصــار "الوجـود الفرنسي" من اغتياله في يونيه 1955 شهورا معدودات قبل عودة الملك مــن منفـاه وإعلان الاستقلال في نونبر من نفس السنة، مما جعل ماس وصحفه تتلــون وكــان ذلك من آخر تلوناتها بلون المغرب المتحرر وتتكلم بلسان الحكومات المغربية إلــى أن تمت مغربتها في مطلع السبعينات.

هذا ولم يفت الأستاذ بيضا أن يذكر ما وقف عليه من تطور نوعيــن آخريــن من تلك الصحافة الصادرة بالفرنسية : صحافة الجالية اليهودية من جهة وصحافــة الكنيسة الكاتوليكية من جهة أخرى. فلقد تحركت الجاليات اليهودية مثلما تحرك كــل شيء في المجتمع المغربي من جراء الحماية وألزمت بالإصغاء إلى ما كان يجــري حولها داخل البلاد وخارجها سيما وقد انبث في صفوفها عنــاصر أجنبيــة جــاءت موفدة في مهمة الدعاية للتيار الصهيوني. ومع ذلك يميز الباحث بين ثلاثة اتجاهــات في تلك الصحافة أثناء الحماية اتجاه كان ينادي بالشعارات الصهيونية ولسان حالـــه دورية كانت تصدر مرتين كل شهر تحت عنوان L'Avenir IIlustré بقصــد إقنــاع اليهود المغرب أن لا مستقبل لهم إلا في فلسطين وأيضا بقصد تمكينهم من شيء مــا من الأدبيات الصهيونية التي كانت الصحف الرائجة بها في العالم محظـــورة فــي المغرب. وغني عن البيان أن المجلة المذكورة انقطعت عن الصدور مــع اشــتعال نيران الحرب العالمية الثانية. ثم كان في الجالية اليهودية تيــار ثــان لا يعنيــه إلا شؤونه الذاتية وتحسين أحوال أفراد الملة مع تمــام الامتثــال للســلطات الفرنســية والتنويه المستمر بما جاءت به من الرقي لهم وبما كانت تغدقه عليــهم مــن النعــم وكــان لســان حــال هــذا الاتجــاه الدوريــة الشهريـــة الصــادرة بالربـــاط تحــت عنــوان La Voix des Communautés. أما التيار الثالث فإنه تجلى في مطلــع الخمسينات تحت تأثير فليكس نتاف Félix Nataf وميير طليدانــو meyer Tolédano اللذين تفطنا إلى خطورة شأن النضال الوطني وإلى واجبات اليهود المغاربـــة فــي ذلك فأسسا في مارس 1951 جمعيــة Les Amitiés marocaines للدعــوة إلــى رص صفوف الوطنية المغربية بغض النظر عن الاختلافات الملية.

وسارت الصحافة الكاثوليكية هي الأخرى مسارا شبيها بذلك. فإنها كانت طيلــة أسقفية المونسنيور فييل (Mgr. Vielle) فيما بيـــن الحربيــن العــالميتين صحافــة استعمارية شبه صليبية متحمسة لضرورة نشر المســيحية فــي صفــوف القبــائل البربرية. فكانت من المقتنعين بصواب الظهير المشؤوم ليوم 16 ماي 1930 وكــان

لسان حالها مجلة Le Maroc catholique المنشأة منذ يناير 1921 والتي تعززت سنة 1928 بملحق يحمل عنوانا واضح المرمى وهو Le Semeur marocain كان يشرف عليه الأب هنري كولير (Henry Koelher) وبأسبوعية تحت عنوان L'Effort صدرت أول مرة سنة 1935 رافعة لشعارات الأوساط اليمينية الفرنسية المتطرفة. ولكن صحافة الأوساط اليسارية والماصونية العقلانية كانت تتصدى لها وتفضح شطحاتها وتفند مزاعمها. وكان في طليعة المعركة من الصحفيين الفرنسيين أمثال Eugène Carette-Bouvet و charles Hédelin اللذين كانت لهما سوابق في السجال ضد الأوساط المهيمنة في الحماية منذ مقيمية ليوطي مما يذكره الأستاذ الباحث بالتفصيل فلينظر هناك. أما ما نذكره نحن هنا فهو أن الأوساط الكاثوليكية تفتحت هي الأخرى لرياح التغيير بتأثير من أحداث الحرب العالمية الثانية وبفضل مجهودات المحامي بول بوطان Paul Buttin الذي استوطن مكناس منذ سنة 1920 وكان ممن لا يقول بتعاليم المسيح وحسب بل وممن يسهر على العمل بها. وكان شغله الشاغل في الثلاثينات ترويج الصحافة الكاثوليكية المتحررة الصادرة في فرنسا ليضاهي بها ما كانت تكتبه أقلام الصحافة الصليبية في المغرب ثم إنه أنشأ مجلة شهرية لنشر آرائه التقدمية تحت عنوان Terres d'Afrique وذلك ابتداء من يناير 1944 وعززها بدورية أخرى في مارس 1946 تحت عنوان Méditerranée، وبذلك سيطر التيار التحرري الكاثوليكي في السنوات الأخيرة من الحماية سيما بعد أن عين الأسقف ليفيفر (Mgr Lefevre) على رأس أسقفية الرباط وكان يدعو جهرا إلى احترام الجماهير المسلمة ويرى أن لا سبيل لاطمئنان المسيحيين في المغرب إلا برضاها.

ولقد أتى الأستاذ بيضا بكل ذلك معززا بتفاصيله مثبتا بقراءة متأنية متبصرة للمجموعة الضخمة من الدوريات وللعديد من الوثائق الغميسة المنتقاة من أهم مستودعاتها كوزارة الشؤون الخارجية في باريس ونانط ووزارة الحرب في قصر فانسين والمتحف الابريطاني والوثائق الأمريكية في واشنطن ووثائق الرابطة الإسرائيلية في باريس ووثائق وكالة هافاس ووثائق الخزانة العامة في الرباط فضلا عن كل ما هو منشور من الدراسات والمقالات التي لها صلة بالموضوع. وقد سيق للقارئ كل ذلك بلغة حية لاتشوبها شائبة وبخفة روح تجعل من مطالعة الكتاب متعة لا يخلو منها لا لحظات الاستملاح ولا لحظات الإشفاق. فإنك أحيانا تجد نفسك وكأنك بصدد مجموعة من القصص يعرض المؤرخ خيوطها أمامك فيشوقك للاطلاع على فصل المقال منها فيشتد الانتباه ويساعد على استيعاب كل ذلك وضوح التصميم وتذييل كل باب منه بملخص يختزل مجمل ما تحصل من المعلومات التي جاءت ملخصة قريبة التناول في الخلاصة العامة ، يضاف إلى كل ذلك الجداول والبيانات الإحصائية الواردة في طي الكتاب بالأرقام وبعناوين الصحف وبتطورها كما وكيفا وعبر الحقبة المدروسة.

فهذه الأطروحة لا يملك القارئ إلا أن يقول عنها إنها جاءت وفق ما أراده لـــها واضعها ، فهو يثبت أن الصحافة مصدر تـــاريخي لا غنـــى عنـــه شـــريطة أن لا يكتـــفى بفحص العناوين والنوازل بل وأن ينغمس المؤرخ في الغميس من الوثـــائق ليطلع على ما كان من تحت تلك الصحافة من الأوراق مما لم تكن لتنشـــره فـــي حينه وهو طعام سائغ حلال للمؤرخ. ولي مع ذلك ملاحظتان على الأستاذ بيضـــا : أولاهما أنه ترك جانبا مضمون تلك الصحف فلم يلتفت لا لما كانت تســـوقه مـــن الأخبار ولا لطبيعة من كان يقرأها من القراء فلا علم لنا مثلا بما كـــان لـــها مـــن الوقع على الجماهير المغربية وكان بودنا أن نعلم أي دور كان لها في ما جرى مـــن التغيير. أما الملاحظة الثانية فهي وإن كانت شكلية جزئية إلا أنها ذات وزن ولافتـــة للانتباه إذ يتعلق الأمر بصيغة العنوان وبالضبط بنعـــت تلـــك الصحافـــة الناطقـــة بالفرنسية بأنها "مغربية" جملة وتفصيلا. فإذا قلنـــا La Vigie marocaine بأنـــها مغربية لمجرد أنها كانت تصدر في المغرب وجب أن نقول عـــن أســـبوعية AL Istiqlal إنها فرنسية لمجرد أنها كانت تصدر بالفرنسية فنقع في العبث. ويخيل إلـــي أن العنوان الصائب هو الصحافة الصادرة بالفرنسية في المغرب منذ الأصول وإلـــى سنة1956 . وللأستاذ الباحث واسع النظر على كل حال.

